العنف على الشاطئ

قصة بقلم محمد شكري

كنت اجلس على رصيف مقهى « مسترال ». كان وضعي مسترخيا. وكانت لامبالاتي بالمارة تهدىء أعصابي . قال لي احدهم ذات مرة : ينبغي لمن يريد ان يكلمك ، وانت هكذا ، ان يهزك من كتفيك لكي تنتبه. كان نصفي الاسفل يحترق في الشمس : كأنما هو عضو مصاب يعالج بالاشعاع . وضع النادل كوب الشاي على طاولتي ، وحذرني بخفت :

ـ انه يحوم حولك ، فلا تهتم به . يطلب جرعة شاي ، واذا لم يعطها يطلب النعنع ليمتصه حين يفرغ الكوب .

ـ من تقصد .. ؟

ـ ميمون .

والتفت النادل الى ناحية ميمون . وكان ميمون يستند الى جدار فندق بسرا Becerra

ـ اهاه .. انني لم اره ...

واضاف النادل بلهجة حاقدة :

ـ انه يزعج لي الزبناء دائما عندما يأتي دور عملي .

وذكرته فجأة : انك نسيت ان تأتيني بالكوب الفارغ . كانت تلك عادتي : ان أصفي الجرعات في كوب كطفل يتلذذ بما يعمل .

وهز النادل رأسه ثم جر قدميه .. وحين اختفى صاح ميمون باهتياج من مكانه :

ـ لقد كان الملعون يشتمني .. اليس كذلك .. ؟ يكفي ان انظر الى حركة شفتيه لاعرف انه يتكلم عني بسوء .. ان سحنته تفضح طويته .. لكني اعرف ماذا سافعل لهؤلاء النذل الملاعين ذات يوم . اتمنى ان تكون هنا حاضرا لترى بعينيك : (وتخيل انه يحمل خنجرا فرفع يديه في الهواء) : ـ هكذا ساهاجمهم دفعة واحدة فلا يفلت مني احدهم . (وطفق يطعنهم في الهواء على طريقة دون كيخوتي دي لا مانشا) وبعد ذلك لا يهمني ان اختفي الى الابد .

وصمت . وكان بعض المارة يتوقفون ثم يستأنفون سيرهم وهم يهزون رؤوسهم في اسف ... وفكرت : ان بعضهم يستعيذ بالله خوفا من ان ينتهي مثل ميمون . وظل هناك طفلان شرسان يحدقان في ميمون بهزء فصرفتهما بتوبيخ قاس . وبعد لحظة قلت لميمون بعطف :

ـ دعهم عنك يا ميمون ، لان الازمة الاقتصادية هي التي تهيج اعصابهم ، فلو كان هناك رواج لما كان هناك وقت ليلتفتوا اليك .

كنت اكلمه دون ان اهتم اذا كان سيفهمني ام لا !!؟ ولكني صدمت .. وادركت ان ميمون حقا يعاني مزيجا من الجنون المبكر وبارانويا الاضطهاد حين صاح :

ـ فنابل .. فنابل خضراء . السكين .. السكين والدم . موتى .. موتى وهم احياء .

واخرجت علبتي وعرضت عليه ان يدخن .. اقترب فسحب لفافة بيد مرتعشة .. وسخة .

وظهر النادل فقفز ميمون بخفة الى مكانه . وضع النادل الكوب الفارغ وسدد نظرة وجلة الى ميمون . وفكرت : (انه يعرف غضب ميمون ويخشاه) وقلت للنادل بجد :

ـ هل انا حر في ان يشاركني ميمون في شرب هذا الشاي .. ؟

ـ نعم . انت حر .. ولكن صاحب المقهى لا يطيق جلوس هذا المجنون في مقهاه . لقد تشاجر معه مرات بسبب هذا التصرف : ان جلوسه ينتهي دائما بمشاجرة يا سيد سامي . انت لا تعرف بعد بماذا يتلفظ عندما يحدث الناس ...

وقاطعته :

ـ انا اضمن لك بانه لن يزعج احدا هذه المرة .

والقى على ميمون نظرة سريعة ثم قال لي :

ـ انت المسؤول اذا حدث لك معه مكروه ... انني احذرك فقط من العاقبة ...

ونظرت الى ميمون باطمئنان فرأيته يدخن بهوس . ويلتهم النادل بنظراته الوحشية :

ـ انا المسؤول .. ولن يحدث مطلقا شيء ..

وشعرتني ايضا اهتاج للحظة : سأكون مسؤولا عن تصرفات انسان مرفوض .. ولا يطيقه احد .. وريثما أهدأ غصت في ذاتي : واذن فقد اصبح ميمون مخيفا بهذا الشكل الزري .. منذ سنوات قليلة كنت اراه عاقلا : كان دليلا . وكان يتفاهم مع السياح بلغات كثيرة . وسمعت انه واحد من احسن المرشدين في طنجة عندما يتكلم الانجليزية . وكان ذات يوم على مقربة مني يقص على بعض اصدقائه مغامراته في ايطاليا، والبرتغال ، واسبانيا ، باسلوب مهذب ... ولعدة اشهر كان يرى دائما محيطا ذراعه بخصر شابة قيل لي انها اوسترالية . ورأيته لاخر مرة يعمل في منجر للصناعة التقليدية . وطرده صاحب المنجر لانه كان يخيف السواح ، ويجعلهم يندهشون ، فيستعجلون الخروج دون ان يشتروا شيئا . والتفت اليه :

ـ ميمون .

ـ نعم .

ـ تعال هنا ...

وكان عقب لفيفته يترمد بين جانبي اصبعيه الاصفرين .

ـ اجلس ...

ودفعت له بالكرسي .. وانفعل وهو يجلس :

ـ اتريد ان يهينني فالوي له رأسه هكذا : (وقام بحركة لولبية) او ألقي في وجهه بقنابلي الخضراء .. ؟

ـ اسمع يا ميمون .. لن يحدث شيء من هذا .. لانه ليس هناك من يهينك اذا لم تبدأ انت . ان على المرء ان يكون عاقلا فلا يؤذيه احد.

وصببت له في الكوب الفارغ :

ـ سنقتسم هذا الشاي .

ولمعت عيناه فتحرك الى الوراء ووقف :

ـ انني احتفظ بدوائي وراء باب الفندق ..

وتشكلت على وجهه بسمة كبيرة ذات قسمات متوترة .. ودهشت: (دواء) كان حافيا . وكانت قدماه موحلتين . وكان بنطاله متمزقا عند اعلى فخذيه .. وفقد قميصه الوحيد لونه الاصلي . ورأيته يشطب في الهواء بالبقلة ، وهمست لنفسي : نعنع وحشي . وقال ميمون :

ـ هذه البقلة تداوي ...

ـ وماذا تداوي ؟

ـ تداويني انا .

ـ ماذا تداوي فيك ؟

ـ لا شيء .. ولكنها تطرد المرض من جسمي .

ـ أنت مريض ؟

ـ لا ، ولكنها تحميني من المرض .

وكنت اعرف ان البقلة (المرة) تعتبر عند بعض العامة نوعا من الادوية القديمة تطبخ جيدا مع الزبيب والشعير ، وتشرب المحلول صباحا بقصد علاج السل وادواء اخرى .

وبدأ ينتف الوريقات ويضعها في الكوب بعناية .. وعرض علي نتفا فاطبقت على كوبي براحتي ، وابتسمت له .

ـ لا يا ميمون . ليس هذه المرة . وحين امرض سأطلب منك ان تأتيني بهذه البقلة العزيزة .

ـ ولكن يجب ان نمنع عنك المرض من الان . ثم انك تداوي اذا كنت مريضا .

ـ ليس هذه المرة يا ميمون . ثم انني لست مريضا .

وتأمل سبابته بدهشة كأنه يستشيرها .. وادخلها في الكوب . وفكرت : ملعقة من لحم وعظم . كان يدفع الوريقات الى قاع الكوب بلذة مهووسة . ولم اشأ ان اعترض عليه بشيء .. فجميع تصرفاته ملك له . ثم انني صرت اقوى من ان اشمئز : استطيع ان اتناول طعامي بهدوء امام جثة مبقورة ، فكأن اللحم معد للشواء . وان كوبا من الصديد والدم قد يذكرني بامسية جميلة قائظة وانا اتناول كأسا مثلجا من مزيج الفراولة بالقشدة . ورفع الكوب الى فمه ورشف بعذوبة مسموعة . وفكرت : عسل .. عسل ساخن وزبدة متخيلة .

وسأل ميمون فجأة وعيناه تشتعلان :

ـ من هو الان في الجنة يا سامي ؟

وخيل لي اني لن اطفىء ابدا لهيبه :

ـ انت وحدك يا ميمون !

ـ وانت .. ؟

ـ انا ..

ـ نعم .

ـ اه ! يا الهي ! انني حيث الاخرون يا ميمون .

وقهقه ميمون في داخل كوبه فامتلأ الكوب بالضباب . كان جبينه يفرز عرقا طريا . وحين كانت تقسو اساريره كانت الحبات تتزاحم فينفرط لؤلؤه على صدغيه ، وجانبي حاجبيه ، ومنبت الانف .

ـ قل لي يا ميمون .. لماذا أنت هكذا لم تعد تشتغل .. ؟

وعبس . وخلت لحظة أن شظايا الكوب تنفرز في وجهي .. ! واحسست بألم وهمي خاطف في عيني : انسلاخ الاجفان في وجه الشمس ، وبدغدغات منفصة تشطب احشائي . وابتسمت له.وانتظرت. وظل يحدجني بتوهمه الحقيقي المخيف .

ومددت يدي الى علبتي فوق الطاولة ، فاذا يده تطبق على يدي. وابتسم بود سافج عصبي ضاغطا على اسنانه :

ـ وانا .. الا ادخن من سجائرك .. ؟

وارتبكت :

ـ انما اردت ان اشعل لك واحدة منها يا ميمون .

ـ ها .. ها ها .. انت طيب . ها .. ها ها ... انت طيب جدا يا سامي . ها .. ها ها .. انت اخي .. ها .. ها ها ها ... انت اخي يا سامي . انت مثلي تماما . انت هو انا ، وانا هو انت . يجب ان لا تكون مثل الاخرين يا سامي . يجب ان نكون مثل ما هو انت معي ومثل ما هو انا معك .

وتوقف شاب خسيء ليسخر من ميمون ، ولكن احدهم مر بجانبه فجذبه من كمه ، ومضيا . والتفت الي ميمون بجد حزين :

ـ اتريد ان ترى دمه مسفوحا هنا في هذه الساحة ، فياتي رجال المطافىء ويغسلوا الارض ؟

ـ لا يا ميمون .. اترك هذه الساحة نظيفة .. ان الدم سيلوثها.. وربما لوثك انت كذلك . ثم انا ايضا لا اريد ان اتلوث باحدهم .

ـ انني هكذا يا سامي : ارى دائما دم من يفيظني مسفوحا على الارض وهو يتمرغ مثل كبش الضحية . ان هذا يريح غضبي .

ـ وانا هل أغضبك .. ؟

ـ لا .. ليس بعد .. ولكن يجب ان تكون صديقي وتعيرني بعض المال لاهاجر الى اوستراليا .

واحسست بارتجاف يركض في احشائي . وقلت بمسكنة :

ـ ولكني لا املك مالا ، فانا مثلك يا ميمون .

وردد بانفعال : ـ يجب ان اذهب الى اوستراليا .. يجب الا ابقى هنا وجوني هناك .

واخذ يمتص الكوب .. وانا افكر بتهيج مكبوت : واذن فان المتاعب تأتيه من اوستراليا .

ودمدم ميمون : الهجرة .. الهجرة يا سامي عندما يحب المرء امراة مثل جوني .

ـ ولماذا اوستراليا بالذات يا ميمون ؟

ـ لانها هناك .. وانا احبها .. !!

ـ من هي ؟

ـ جوني .

ـ فهمت .. ولكن المسافة ..

واوقفتني حركته السريعة .. واخرج جواز سفر ممزقا . وكانت بعض اوراقه منزوعة .. وردد بعزم :

ـ استطيع ان الحق بها الى هناك . انا استطيع .. فهل تعتقد معي ذلك يا سامي .. ؟

ـ انك تستطيع يا ميمون .. ولكن ذلك يكلف متاعب . (واضفت:) اكانت جوني طيبة معك عندما كانت هنا في طنجة .. ؟

ـ لم اعد اذكر كيف كانت معي .. ولكنها لن تستطيع ان تنكرني اذا هي رأتني الحق بها .. لقد قالت لي ذات يوم باني كنت الوحيد الذي كان يعرف كيف يضاجعها .

وابتسمت له :

ـ كانت تجد سعادتها في المضاجعة الكاملة .

ـ نعم . انا هو سعادتها .

واخرج من الكوب اوراق البقلة وبدأ يجتر .

وفكرت : ان ميمون يسترد عقله حينما يتحدث عن جوني . ان حاجته الى نفسه هي التي تجعله عاقلا . عقله في اوستراليا ، وهو هنا . وخيل لي ان ميمون يحدثني من اوستراليا حينما يتكلم واعيا .

الماضي : انه الداء والدواء . جوني والبقلة (المري) التي يجترها الان ميمون . ذات يوم سيصبح ميمون ، وجوني ، وانا .. بقولا مرة يجترها كبش الضحية . ان عالم اليوم كله هو بقول الغد : اكباش الضحية : بعرات يكورها طابور من الجعلان . وفاجأني ميمون ، وكانت اسنانه قد ابيضت بفعل التنعنع الوحشي ، وفمه ظلا اخضر لزجا :

ـ لنذهب اذا شئت الى البحر .

ـ لماذا ... ؟

ـ لنصنع هناك الملح ونبيعه قبل ان تغيب الشمس .

ـ ذات يوم اخر يا ميمون .

واخرج من الكوب بقية الاوراق وعاد يجتر ... وفكرت : حاضره هنا جنون لا يحتمل .. وماضيه مثل بزاق يتدحرج على بعضه في قدر بلا غطاء على نار : انه لا يكاد يطل على الحاشية حتى ندفعه يد خشنة مرتجفة . اما مستقبله فانه بلوعة رملية : ابتلاع صاخب يتلوه هدوء وحشي . واشتعلت نظراته . وتلفت فاذا رجل جاف واقف امامنا . وانتهر ميمون بازدراء :

ـ انهض وغادر مقهاي .

وانتفض ميمون فاعترضت :

ـ ولكنه الان عاقل لا يفعل شيئا .

وصاح الرجل باضطراب :

ـ انا الذي اعرفه خيرا منك . وانت لا تعرف متى يتصرف بجنون ... انه يقذف اي شيء في وجه اي كان عندما يصعد الزهري الى راسه .

وغجبت لسكوت ميمون .. ايكون انه يخافه ام يحترمه .. ؟

وتبادل ميمون معي نظرات مرتبكة .. كئيبة .. ثم انصرف . ورأيته يقف في اقصى الساحة متوترا .. فاقدا اهتمامه بمن حوله . وبعد لحظة خلع قميصه وتمدد على عتبة التلغراف الاسباني القديم عاريا حتى النطاق . وكان صدره المتضخم الاسمرُ يلمع في الشمس : الزاد المجاني بعد الهواء والماء . كان يعرف نفسه : لوحة فريدة حية من العالم القديم ... حين كان الانسان صديق نفسه : لا ينتظر احدا .. ولا يشاركه في احلامه النرجسية احد .. انما هو كان رفيقا للعناصر التي تقوده .

وتكلم رجل كان يجلس خلفي : ـ انه يحب الشمس .

واجابه الجالس الى جانبه :

ـ من ، ميمون ؟

ـ نعم .

لقد صاح ذات يوم هنا بصوت دفاعي : خذوا مني كل شيء ، واتركوا لي الشمس والبحر وهذه الساحة .

وتوقف امامه شرطيان سريان . وكنت اعرف احدهما . ولكني كنت انفر منه لكبريائه الزائفة .. ورأيت ميمون يرتدي قميصه ويجلس على العتبة . وتركاه هناك .. لا شك ان احدهما قد قال له في شفقة عادلة: انهض اجلس كيفما تشاء .. لكن لا تتعر او تنم .. وان الاخر يكون قد اضاف : واذا عدنا ووجدناك تعرض نفسك من جديد فيضنا عليك بتهمة التشرد الاباحي .

وسمعت صاحب المقهى يغص على هرم عاقل مثله مساوىء ميمون:

ـ انه يحمل لعنة والديه اينما ذهب . لقد جاء عنده ابوه السيد ادريس من الريف فانكره سائلا منه : « يجب ان اولد من جديد لاكون ابنك ، فتتولاني بالعناية حتى اكبر واجدني راضيا عن نفسي بانك ابي... اما الان فانا ابو وابن نفسي : انا ادريس وميمون » . وتوقف صاحب المقهى لحظة ثم اضاف :

ـ ارون اذن .. لا شك ان اباه قد تألم كثيرا . فانا اعرف ذلك السيد الوقور ... انه رجل دين : من الدار الى المسجد ، ومن المسجد الى العمل . ان الرجل الذي يلد ولدا مثل ميمون يجب ان يستغفر الله على مصيبته .

واختفى صاحب المقهى . وكانت هيأة ميمون تعكس همه. وفجأة تحرك ، كأنما نهض بسفود ، فاستوى واقفا ، وجاء يخطو تجاهي . وكان احد الكوبين ينكسر بسحر ، وتنفرز شظاياه في وجهي . وبحركة قوية رفع الكرسي وقلبه على وجهه :

ـ ليجلس الان الشيطان على هذا الكرسي .

ورآه صاحب المقهى من الداخل فخرج يعوي :

ـ ايها المجنون .. ايها الملعون .. انني استطيع ان انفيك من طنجة كلها .

وصفق ميمون عقبه براحة يده كبهلوان وصاح من بعيد :

ـ طز يا خالي طز .

واراد صاحب المقهى ان يلحق به ، ولكن احد الجالسين امسكه من ذراعه ، وقال له بأسف مواطىء :

ـ انت ترى انه مجنون ، فكن انت عاقلا . سيأخذونه الى المارستان بين يوم وآخر . ان ذلك سيكون في مصلحته . ولكن لا تكن انت هو السبب في ذلك .

ـ لكنه يدرك ماذا يفعل لو تعرف .. انه يبحث عمن يجنن . انه مجنون وليس مجنونا .

وتوقف هنيهة ثم أومأ الي وقال :

ـ انت يا سيد سامي جعلته اليوم يسيء الينا .. فهو حين يجد من يتواطأ مع تصرفاته يطفى ويحسب نفسه حارس هذه الساحة .

ودافعت عن الموقف :

ـ انت تعرف انه هكذا .. فيجب الا تضاعف من هياجه..خصوصا اذا كان يجلس هادئا مع احد الزبناء الذين يعطفون عليه .

ولم يجب .. وقال أحد الجالسين ورائي :

ـ ان البطالة هي التي تخلق المجانين .

واجابه شيخ بلهجة انتقادية :

ـ كان زماننا اكثر بطالة من اليوم ، ومع ذلك لم يكن هناك من يجن بسبب التسكع . انما ترف الحضارة وعدم الرضا هما اللذان يلفان اعصاب الناس . القناعة هي العقل يا سيدي .

وبدأ ميمون يقوم بحركة رياضية كبطل يتهيأ لمباراة العدو فرب العبة . وقال صاحب المقهى :

ـ انظروا .. انه يستعد الان للسباق مع متبار خيالي .. وهو الفائز دائما في مثل هذه المباراة التي يجريها مع نفسه .

وثنى ميمون ركبته اليمنى . وانتظر لحظة ، كأنما كان ينتظر الاشارة الزمنية الدقيقة . وكان الزمن قد تضخم فانفجر . وعدا ميمون باقصى قواه . واندهش المارة .. وتمدم احدهم في سخط ونفاد صبر :

ـ ولكن اين حراس الامن ليوقفوا هذا التعيس المجنون ؟ .. ان افعاله تعكس علينا .

وكان ميمون قد وصل الى اخر الشوط ودار دون ان يتوقف . ولدى وصوله العتبة رفع يده ، واعلن فوزه على نفسه . واقترب منه صبي ابله وطلب ان ينساب قدميه ، وكان ميمون لا يطيق التحدي الوضيع فركله ركلة قاسية في مؤخرته ، وقفز الصبي بعيدا وهو يعوي ويشتم مستنجدا بأبيه .

وكرر ميمون السباق ثلاث مرات . وكان احدهم قد اعطاه في المرة الاخيرة خبزا محشوا . وجلس ميمون على العتبة واخذ يمضغ في هدوء . وكان على خلاف تناوله الشاي . وفكرت : (يتخيل انه صحبة جوني في احد المطاعم الفخمة . اما شربه الشاي فانه يذكره بلياليه المعربدة بعد ان هجرته جوني وادمن الخمر حتى لا ينتحر . ان كثيرا من تصرفاته يتحكم فيها وحي ماضيه) .

***

بشر .. شمس .. وبحر . بعث ناعم عار . طوفان بشري يتزلق على نفسه .. بحيرات سراب تتعانق . وكان ميمون يشتهي بوحشية هذه الاجسام الطرية التي تندمج في بعضها كظلال لوحة مائية . ان البشر ناعمون وخفيفون هذا اليوم . وكان ميمون يحقد على نفسه لانه كان خشنا . كانت الشمس تعميه ، وكان نسيم ازرق شفاف ينشفه . وكان لا يفهم الناس لانه لم يكن يفهم نفسه . كان قد اضاع نفسه فيهم في ذلك اليوم : انها (١) تشكل طرفا منهم ، لانهم قد ساعدوا على ايجاده بشكل مفرد ومشفق عليه ، صفقة وجودية لا رأي له فيها .

ثم انهم ربما صفعوا كثيرا وابتهجوا حتى الجنون يوم صرخ لاول مرة . ولكن ها هم اليوم ينكرونه ويعتبرونه غريبا عنهم . كان يعرف جيدا ان وجوده بينهم غير مرغوب فيه . ولكنه يتحداهم ويجعلهم ينتبهون في حذر . كان يفكر ويعيش لنفسه .

كان الرمل ينهار تحت قدميه كوسائد من حرير . وخيل اليه ان جسمه سيذوب كله عرقا . وبدأ يسمع انغاما بعيدة فاحس بحمل نفسه يخف . لقد كذبوا عليه : فليس صحيحا ان : « ليس احدا وحيدا في الدنيا » .

كان مظهره يوحي بالضيق . وكان نفور بعض الوجوه يسمره في مكانه فلا يتحرك حتى يحس انه ينتصر . كان انهزام الاخرين يسعده . واغترف الرمل وضغط بقوة : ذهب ينصهر . وكان يحس ان البشر ينعجنون في يده . هؤلاء العجن سيجفون ذات يوم . كانت شابة سمراء تخرج من البحر فائضة الصدر .. وكانت تسيل مثله . ومرت قدامه فارسل انتفاضة ارتعشت لها . وكانت لها خاصرة دقيقة .. ومؤخرة مغرية .. وكان ثعبان الشهوة هائجا في عينيه . واحتمت الشابة بالبشر في ذعر مكتوم . وكان ميمون يتخيل تمددهم كسردين

(١) اي نفسه .

ينشوي ، فيجوع اذ ينظر اليهم ، ويظما حين يرى الى ابعد منهم .

التقط بعض الاصداف واخذ يقلبها في يده : لو كانت هذه جواهر للحق بجوني . ان هذه الحفنة هي حظه الاخير . لو انها تتجوهر بسحر ساحر .. وود لو انه يعيش في عالم السحر . ودخل في عالم مسحور .. وطفق يعي نفسه بسكينة : (كان في ماضيه مشغوفا برؤية الاصداف في شاطىء الحسيمة ، وهذا ما يجعله في هذه اللحظة يتذكر وعيه بسلام) .

لو ان ماضيه النقي ينبعث من جديد .. طريا مثل فصل الربيع .. لما كان هناك اي تعقيد في الصلح مع نفسه والناس .

كان يلتفت الى البحر ، فيخترق النسيم قميصه ويحس قطعتين من الثلج تذوبان تحت ابطيه . وفجاة توقف اذ راى شابا قادما في سباق عنيف مع نفسه . وواجه ميمون البحر متخذا هيأته الاستعدادية. وقرر ان يترك الشاب حتى يتساوى معه ثم يقلع .. واحد .. اثنان .. ووصل الشاب ، فطار ميمون كانه ديك مقصوص الجناحين : شروب .. شروب .. شروب .. شروب .. شروووب ...

انتفض الشاب من الماء مندهشا .. وظل ميمون غائصا .. وبعد لحظة طفا بعيدا .

وخبط بعنف ثم غاص . وكان يبدو في القاع مخيفا مثل كلب البحر . وكان له نفس عميق ، واندفاع كانما هناك محركات ثابتة تدفع اطرافه . وانبثق واقفا . واخذ يتنفس بقوة ، كسمكة خارج الماء . وكان بعض المستحمين يستفربونه . وكانت هيأته منهوكة ، فكان في قدميه حذاء من فولاذ . وخرج . وكان يسيل ويقطر . وكانت اسماله تلتصق بجسمه ، كأنها شمع يذوب : تمثال مصبوب في قالب من الجبس. ومشى على الشاطىء كبطل افاق من غيبوبته في نهاية المعركة . وكانت فتحة سرواله كاشفة لثعبان مقرور ساكن بين تينتين فجتين . وكانت خطاه تنعثر في الرمل فارتمى على وجهه . كان يسند راسه على ذراعه اليسرى ، وذراعه الاخرى ممدودة على الرمل . وكان صداع قاس يؤلمه في صدغه الايمن . واحس كان احشاءه افاع يلتهم بعضها بعضا : ان في جسمه جدبا قاتلا : معركة البقاء والموت . وغفا . وكان تنفسه المتعب يكنس بقعة الرمل التي يظللها جانب وجهه وذراعه . ومن بعيد كان يبدو كحوت تقياه البحر .

***

عرق .. دوار .. وغضب . استيقظ ميمون . وكانت اطماره مثل اوراق الخريف ... وكان راسه وابطاه وثنيات بطنه تنبجس عرقا . وخلع قميصه فرشته نافورة البحر الهوائية . ومشى نحو الماء . وكان يحمل قميصه في يده ، مثل ارنب بري ميت . وغطس راسه ، وكانت يده الاخرى تغترف الماء وترش رقبته وصدره . وكان يفتح عينيه في الماء فيرى مويجات الرمل تتشكل . وتسربت الى جسمه نشوة باردة ففاض دون ان يرفع راسه . وخبط برأسه مثل دلفين يستنشق الهواء. وكانت تلك هي الوسيلة الوحيدة لمكافحة عرقه وعصابه . وكان دواره يخف . وخرج . ثم سار على الشاطىء . كان يتيه . وكان قميصه في يده يسيل . وعاد سرواله يندعك ويلمع . وكان جسمه مشدودا مثل جلد طبل . ولم يكن قد بقي له ما يفكر به : كان يعتقد ان الشيطان هو الذي نسج له اقماط حياته . ولم يكن في حاجة الى تضليل مطارديه : هانذا تماما كما شئت ان اعيش بينكم . كان يواجههم : ان تكن كل آلامي منكم فاليكم اعيدها .

كان يود لو انه يجعلهم يلتهبون مثله .. ثم يندحر او يبتهج معهم لعيد ميلاد مجهول .

كانت قد قالت له امه ذات يوم في الحسيمة :

ـ لسنا لا خيرا ولا اسوا من الاخرين !

ـ وماذا نحن .. ؟

ـ نحن هكذا كما ترى ...

وسال ذات يوم اخر : ـ ما هذه الطبول والمزامير والدفوف التي اسمعها يا اماه ؟

ـ انها تعلن عن افراح الشعب .

واعترض ابوه الجاف المتذمر :

ـ بل هي بداية الخطيئة في الشوارع .

***

كان ميمون قد ابتعد كثيرا عن المصطافين . وكان يقترب من وحدة بشرية تسطع : شهوة وحشية مجانية . كانت الشابة قد لفت راسها بفوطة . وكانت عارية تماما : (جسم حي مخدر معد للتحنيط) ونظر ميمون الى نهاية الشاطىء فكان هناك بعض المستحمين يبدون كأقزام . والتفت الى الوراء فرأى حقلا مزروعا بالبشر . كانت رؤوسهم تتقارب وتفرنقع : حشر لم يواجه يأسه النهائي بعد . وتمشت الشهوة في جسمه فترك قميصه يسقط من يده من فرط الانفعال . وكان يحس بدغدغات باردة فكانما هو يساط باغصان مبللة . كانت العذوبة تصعد الى رأسه فينبجس في فمه رحيق ، وفي منخريه طيب . وكانت يداه المرتجفتان تتلمسان بآلية خزامته . وكان ميمون لم يلمس امراة ما منذ ان هجرته جوني .

وسقط بنطاله فانبثق عري خشن يخفق . وكانت عيناه تعشيان ، وظله يرتسم على جسم الشابة . ولم يعد يرى سوى شقرة خفيفة سقطت عنها ورقة التوت الوهمية . وكان ميمون عنيفا في ارتمائه .. وبدا الزمن يتكدر . وكانت الصرخات تختنق . وكان ميمون يتلذذ ويلغو ... وادركت الشابة انها تستنفد قواها عبثا فانهدت . وكانت اظافر ميمون هي التي تبعث الالم في جلدها . وكان ذلك شذوذا لذيذا تحبه جوني حين يمزق ثياب نومها على جسمها . وخف العنف في النشوة.. واخذ ميمون يلحس جراحها بلسانه . وتلفت الى اليسار فاذا لفيف الاقزام يتسابق .

وانتصب طريا كانه يخرج من الحمام لتوه . والقى نظرة سريعة على الشابة المبهورة فارسل عليها رشاشا من فمه : (تفو) ثم التفت الى هجوم الاقزام فامتلأ بالزوجة مرة اخرى وتطاير رشاش اخر تجاههم : (تفو) .

ونلفت الى البحر فاذا هو حنين قديم ينبعث فيه . ويندفع ... (فرار .. فرار . .فرار ..) : شروب .. شروب .. شروب .. شروب .. شروووب ...

خبط عشوائي ناعم في رحم امه . وكان هذا شعورا باطنيا يمتزج دائما بذكرياته الطفولية : رغبة ملحة لا يفهمها الا من كان له احساس ملائكي . وكان ميمون يسبح في الماء المقدس الذي يقوده الى هذه الرؤيا الكاملة .

وكانت اسماله الملقاة على الشاطىء تبدو من بعيد كبقايا اخطبوط عفن .

كانت الشابة قد لفت نفسها ووقفت منذهلة . وكان الاقزام قد اصبحوا عمالقة .

وكان ميمون يبتعد ويختمي في رحم امه . وكانت الشابة خرساء . وقال احدهم :

ـ ولكن ماذا يريد ان يفعل ذلك المجنون .. ؟

واجابه اخر :

ـ دعه .. سيخاف وينقذ نفسه عندما يبتلع بعض الماء .

ـ يجب ان نفعل شيئا من اجله حتى لا يغرق .

ـ ان هذا الفرار لا يفعله الا المجنون . ونحن سنكون مثله اذا فعلنا شيئا من اجله .

وكان ميمون يبتعد ويختمي في رحم امه . وكانت الشابة خرساء . يتلاحق ويصل الى المكان . وظلت الشابة في مكانها تنظر الى ميمون الدلفين ولا تفوه بكلمة .

كانت سخرية ماجنة تنصب عليها في اشفاق . وكان الناس قد طفقوا يتحدثون عن مصائب الجنون وهم يرقبون ميمون باندهاش صاخب .

طنجة (المغرب الاقصى) **محمد شكري**